

ملاحم من حياة

الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة

الحاكم الرابع

١٨٤٢م - ١٨٦٩م

إعداد : الدكتورة أمل ابراهيم الزيانى

يدور الحديث فى الصفحات التالية حول الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة حفيد الشيخ سلمان بن الشيخ أحمد الفاتح ، وأحمد بن محمد (الفاتح) هو الذى أنشأ حكمه فى جزر البحرين ، حينما دخلها فاتحا منتصرا من مركزه المواجه للبحرين فى الزبارة (ساحل قطر) وذلك عام ١٧٨٣م .

ان دراسة الموضوع من خلال الاحداث التى مر بها وعاصرها ولعب دورها المباشر ، على المسرح السياسى انذاك ، لابد وان تكون اثرت بشكل اوبأخر ليس فقط على المستوى المحلى اداريا وعسكريا واجتماعيا ، وانما على المستوى الاقليمى متمتزا بالعلاقات السائدة بين المجتمعات السياسية الكبيرة منها والصغيرة كما سنرى من علاقاته بفارس والدولة العثمانية من جهة اضافة الى علاقاته بسلطان عمان والسعوديين انذاك من جهة اخرى .

وعلى المستوى الدولى فان علاقته ومواجهاته للوجود البريطانى فى ذلك الوقت شكلت علاقته الخاصة مع ممثلى بريطانيا فى المنطقة . انطلاقا مما سيتضح من

● خلال اوضاعه المحلية والمحيطية ، وتفاعلها بالمتغيرات في ذلك العصر .

● من هذا التدرج في متابعة خطوات الشيخ محمد منذ خرج على المسرح السياسي باحثاً وراء السلطة والحكم كان الوضع يتعلق في البداية بتوطيد سلطة عمه عبد الله بن أحمد الى ان تطور الوضع نحو البحث عن فرض وجوده الشخصي في قمة الحكم والذي حاول جاهدا الاحتفاظ به بمختلف السبل والوسائل عسكرية كانت ام دبلوماسية حتى وان بدت ذات مراهنات ووقائع قد تكون محسوبة في بعض الاحيان وقد تخطىء الحساب في احيان اخرى بالرغم من صفات المهوبة التي تميز بها الشيخ محمد بن خليفة والتي جعلت الباحثين القدماء يصفونه بالدهاء والرؤية الواضحة للامور المستقبلية التي تكون اقرب الى التنبؤ بالحدث قبل حصوله .

● ان الكتابات القديمة التي تناولت سيرة الشيخ محمد بن خليفة من خلال الاحداث الدائرة في البحرين ومنطقة الخليج في منتصف القرن التاسع عشر كانت باقلام اوروبية كما جاء في كتابات (لوريمار) (وفيلكس جينز) وهما من البريطانيين الذين عملوا في المنطقة اوباقلام رحالة ومتابعين من المؤرخين العرب ، كالريحاني ، والشيخ النبهاني هذا الى جانب الرسائل العلمية التي اطلت على المكتبات في النصف التالي من القرن العشرين ، باقلام عربية ككتابات الدكتور جمال زكريا قاسم والدكتور صلاح العقاد وغيرهما اضافة الى بعض الكتابات الايرانية التي تصدى كاتبوها في رسائل أكاديمية مبررين وجهة النظر الايرانية بالنسبة للعديد من الامور المطروحة على الساحة الخليجية بأسلوب يختلف كثيرا عما افناه وتعودنا عليه من الرحالة والمسجلين والمؤرخين سواء أكانوا عربا أم اوروبيين . وابرز ما اريد ان اشير اليه كتاب الدكتور عباس فاروقى وكتاب الدكتور فريدون ادميات والآخر يتناول الشيخ محمد بأسلوب وبطريقة تبعد كثيرا عما سبقها ولحقها من كتابات . هذه المؤلفات السابقة في البحرين والاجتهادات المطروحة تؤلف في مجملها اساسا وترسم صورة شكلية للشيخ محمد بن خليفة تخرج واضحة من خلال شخصية الشيخ ذاته والذي يعتبر المفتاح الحقيقي الذي يضيء الضوء الاخضر لتتبلور من انعكاساته المراحل الرئيسية الثلاث التي ترتكز عليها رحلته الطويلة والشاقة المبتدئة بقطر والمنتهية في مكة ، وما صاحبها من أحداث لها مدلولاتها الايجابية والسلبية التي تترك بصماتها دون شك على مجمل الاحداث اللاحقة .

المرحلة الاولى :

ظهور الشيخ محمد بن خليفة على المسرح العسكرى - السياسى

● تبدو لأول وهلة الملامح الرئيسية التي تحدد المرحلة الاولى من حياة الشيخ محمد بن خليفة منذ بداية التاريخ الحديث للبحرين بعد ان دخلها آل خليفة عام ١٧٨٢ بقيادة الشيخ / أحمد الفاتح والذي أثر ان يتخذ من الزبارة مركزا لحكمه ،

غير ان ابنه الشيخ/سلمان الذى خلفه فى الحكم واجه اطماعا وصعوبات جمة من الدول المحيطة .

وقد مرت البحرين بفترة عصيبة من ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م الى ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م حيث سادت الاضطرابات فى الخليج نتيجة اطماع الدول المجاورة والاجنبية وقد انتهت تلك الصعوبات باستقرار الشيخ سلمان بن احمد آل خليفة واستعادة حكمه فى البحرين معتمدا على اسطول شراعي استطاع ان يقف بواسطته فى وجه الطامعين فى جزر البحرين وقد اتاحت الفرصة للشيخ عبدالله بن احمد آل خليفة ان يستقل بالامر بعد موت شقيقه وشريكه فى الحكم الشيخ سلمان بن احمد . وكان يساعده ابنا اخيه الشيخ احمد والشيخ خليفة ابنا الشيخ سلمان بن احمد آل خليفة . وبعد وفاتهما اصبح الشيخ عبدالله بن احمد هو الحاكم المطلق فى البحرين خصوصا وقد اعتمد على اسطوله الشراعى فى ملاحقة ابن عفيصان وارحمة بن جابر الجاهمة فى الساحل القطرى ملحقا بهما هزيمة كبرى ، كل ذلك جعل نشوة النصر تأخذ مأخذا من الشيخ عبدالله ، فحببت اليه الفتح وكان قد تجدد بينه وبين أمير نجد الخلاف فجهز ، جيشا بحريا وسار به الى « دارين » ففتحها ثم الى « تاروت » ، فاستولى عليها ثم الى « سيهات » فى القطيف فحاصرها فجاءت جيوش نجد توقفه حيث تراجع عن القطيف ، الا ان الشيخ عبدالله لم يهدأ له بال بعد مجموعة الانتصارات التى ابهجته ، وقد خرج عليه بعض اولاده ، يطالبون بالامارة وقصدوا الحويلة (قرية فى الطرف الشمالى من قطر) يستنجدون بأخوالهم فيها ، فأرسل الأب جيشا بقيادة حفيد أخيه محمد بن خليفة بن سلمان أوقع بهم هزيمة شديدة فروا على أثرها وعفا الشيخ عبدالله عنهم فعادوا الى البحرين طائعين وقد سميت الموقعة « موقعة الحويلة »

ويبدو ان فكرة النصر اختمرت وتمكنت من الشيخ محمد بن خليفة مما أدى الى وضوح تطلعاته الشديدة للاستئثار بالسلطة والحكم من عم أبيه المسن بعد ثماني سنوات من معركة الحويلة ولعل تلك الفترة الزمنية بحد ذاتها تطرح بعض التساؤلات فى الموقف الجديد لدى الشيخ محمد .

لماذا تباطأ الشيخ محمد طيلة السنوات الثمان قبل ان يحدد موقفه المتحدى تجاه عمه ؟ - هل هناك ظروف استجدت فى علاقة العم الكبير وحفيد أخيه ؟ هذا ما سنحاول ان نستخلصه من عرض الرجلين فى الصراع الذى دار بينهما .

تشير الوقائع المسجلة فى تلك الفترة أن الشيخ عبدالله واجه اطماعا وتدخلات على المستوى المحلى والاقليمى من اقربائه والقبائل المناوئة لحكمه فى قطر ، ومن منافسيه العتوب فى تلك المناطق ، اضافة الى اطماع الدول المحيطة بالبحرين ، كسلطان مسقط والامير النجدى ، وتدخلاتهما المكوكة فى البحرين ، هذا اضافة الى الدور الذى لعبته بريطانيا فى المنازعات بين الاطراف من جهة والتدخل وربط هذا الطرف او ذاك باتفاقيات مكتوبة تلزم الشيخ التمسك بها والا فان التدخل

● البريطاني السريع بمختلف البوارج والقوارب على استعداد لوضع الامور في نصابها من جهة اخرى .

● كل هذه الامور اتضحت في الخطوات التالية التي اتخذها الشيخ عبدالله وأثارت عليه بريطانيا ، اضافة الى تقدمه في السن بما يتركه ذلك من تبعات على مسيرته :-

● ١ - حاول الشيخ عبدالله ، استمالة السعوديين للدفاع عنه ضد احتلال سلطان مسقط (سلطان بن أحمد) للبحرين واستمالة سلطان مسقط للدفاع عنه ضد السعوديين الى ان توصل بعد المحاولة الثالثة لسلطان مسقط لعقد صلح معه ودفع جزية سنوية ، خصوصا ان السلطان سعيد بن سلطان كان متشوقا للوصول الى زنجبار .

● ٢ - عقد مع الأمير السعودي فيصل بن تركي صلحا حينما علم بوصول القوات المصرية الى الاحساء والتي بدأت بضغط على الجبهة الغربية من دولة السعوديين وذلك بدفع مبلغ ٢٠٠٠ روية للامير مقابل تعهد الامير بصد أي هجوم على البحرين . حيث أعيد فتح طريق المواصلات بين والبحرين وموانئ القطيف والعقير وتعتبر هذه أول اتفاقية أمنية من نوعها بين حاكم البحرين والسلطة في نجد عام ١٨٣٦م .

● ٣ - حاول الشيخ عبدالله ، ان يستصدر من بريطانيا وعدا مكتوبا وصريحا لحفظ ممتلكاته من تعرضها للتجاوزات التي يقوم بها خورشيد باشا قائد الحملة المصرية على المنطقة ، الا ان الكابتن هينل المقيم السياسي ابلغ الشيخ في مارس ١٨٣٩ انه لا يستطيع ان يقدم له رأيا محددا بشأن ما يقترحه من ارسال أحد اقربائه لمقابلة خورشيد باشا في الاحساء وابلغه بأنه يجب ان يكون الفيصل في مثل هذه الامور .

● ٤ - لقد فزع الشيخ عبدالله من تقدم القوات المصرية ، خصوصا بعد تردد الانباء عن تأمر سيد عمان مع القوات المصرية على ممتلكاته ، مما دعا الشيخ الى استمالة حاكم شيراز الذي كان في واقع الامر أشد الناس تلهفا لدعوة الشيخ فأرسل له مبعوثا يقيم في البحرين هو حاجي قاسم ، كما وعد بالمحافظة على ممتلكات الشيخ . غير ان حكومة الهند البريطانية وجدت نفسها مضطرة عام ١٨٣٩م للتدخل وذلك ، تجاه زحف وتقدم القوات المصرية ، وصدور تعليمات حكومة لندن ، بالسماح لقائد الاسطول البريطاني في الخليج سير ميتزلاند بأن يستخدم كل امكانياته ، لمنع قائد القوات المصرية من التقدم ، وقد توفر للشيخ عبدالله تعهد كتابي من جانبه ، بالا يضع نفسه تحت سلطة او حماية أى دولة أجنبية قبل استشارة المقيم السياسي البريطاني .

● ٥ - في يوليو ١٨٣٩ ، اتفق الشيخ عبدالله مع المصريين وتعهد بأن يدفع جزية سنوية قدرها (٢٠٠٠) روية شريطة ان تبقى السلطة الداخلية كلها في يد الشيخ ، وارسل خورشيد باشا ممثلا عنه في البحرين .

الموقف البريطاني من تصرف الشيخ عبدالله :

لقد خرج الانطباع البريطاني بموقف جديد تجاه الشيخ عبدالله يمكن وصفه بالسلبية خصوصا في عقد الصلح والاتفاق مع مختلف الاطراف وبالأخص خورشيد باشا ، محاولا بذلك خلق الاستقرار ودفع أى تدخلات خارجية تؤثر على حكمه في البحرين ، اضافة الى عدم الثقة الكاملة تجاه المواقف البريطانية في رد اية اعتداءات عليه حيث لم يكن امام الشيخ الا هذه السبيل لاجتهاداته ، الا ان بريطانيا اساءت الفهم وبدأت في تبرير سياسة الشيخ بأنها نتيجة لكبرسنه ووهن قوته . وان نجاح خورشيد باشا جعله يشك في قدرة البريطانيين وناقشت اللجنة السرية التابعة لشركة الهند الشرقية امكانية استبداله بشيخ آخر أكثر استعدادا للتفاهم وقررت الا تقف في وجه سيد عمان اذا حاول غزو البحرين كما منحت الاذن (لعيسى بن طريف البنعلی) زعيم البنعلی (وبشر بن رحمة الجلاهمة) ان يتحدا مع الشيخ محمد بن خليفة لاسقاط حكم الشيخ عبدالله منذ عام ١٨٣٨ ، ١٨٤٣ . إذن نستطيع القول أن هذه العوامل المجتمعة شكلت اساسا لنهاية مرحلة عبدالله بن احمد وبداية مرحلة محمد بن خليفة اضافة الى خروج ابناء الشيخ عبدالله* على أبيهم بين الحين والاخر مطالبين بالسلطة التي كان الشيخ محمد يعتبرها من حقوقه الاساسية التي كان يجب ان يتقلدها بعد وفاة ابيه وشريك عمه الكبير في الحكم وكرد فعل لموقف الشيخ عبدالله المعارض لطلب اهاالى الاحساء باشراف الشيخ محمد بن خليفة على منطقتهم تحدد الموقف الجريء للشيخ محمد بالمواجهة الصريحة مع عم أبيه الكبير .

المواجهات الحربية المباشرة بين الشيخ محمد وعم ابيه حاكم البحرين الشيخ عبدالله

انبرى الشيخ محمد نحو عم ابيه في المحرق وحاول حصاره بعد ان لزم العم جانب ابنه الشيخ احمد تجاه بعض القضايا الخاصة التي رفضها الشيخ محمد وبعدها بدأ كل فريق يحشد جيشه ، فالشيخ عبدالله في المحرق والشيخ محمد في المنامة وفي يونيو ١٨٤٢ م ، استطاع الشيخ عبدالله ايقاع الهزيمة الكاملة بالشيخ

هوامش

* كان للشيخ عبدالله عشرة اولاد منهم ثلاثة من ام تنتمي الى قبيلة البنعلی ، وهؤلاء خرجوا عليه طمعا في الحكم .

الشاب آنذاك لما كان له من قوة بحرية وبرية اضافة الى مساندة ابناء اخيه سلمان ضد ابن اخيه محمد بن خليفة الذي ذهب الى قطر باحثا عن انصار يستطيع بمساعدتهم تحقيق هدفه وفي قطري من يناير ١٨٤٣ حتى ابريل ١٨٤٣ حيث ان سكانها كانوا يتعاطفون معه ونجح الشيخ محمد في احتلال حصن مريز ، ومن هناك بدأ بمراسلة اصدقائه في جزيرة قيس .

واخيرا ارسل الشيخ محمد قوة كبيرة من الفويرط التي كان يتخذها قاعدة له تحملها خمس سفن كبيرة الى الساحل الشرقي لجزيرة البحرين ، وبدأ نزول الجند في نقطة مقابلة للرفاع الشرقي ، وأرسل الشيخ عبدالله على عجل قوات يقودها ابنه ناصر استطاعت احتلال الرفاع الشرقي قبل جنود الشيخ محمد ، ودارت بين الطرفين معركة صغيرة قتل فيها وجرح عدة رجال من الجانبين . ويبدو ان الشيخ عبدالله لم يوفق في محاولة تطويق الغزاة من البحر وقطع خطوط امداداتهم .

وفي مارس او ابريل سنة ١٨٤٣ أصبحت مدينة المنامة تحت حكم شقيق الشيخ محمد وهو الشيخ علي بن خليفة - بموافقة اهلها ثم وصل عيسى بن طريف وبشر بن رحمة الى البحرين ومعهما قوات كبيرة من المناهضين للشيخ عبدالله .

وفي ابريل هاجم الحلفاء مدينة المحرق وهي مقر الشيخ عبدالله ، وأرغموه على ان يحتمي بحصن ، لا يبعد كثيرا عن المدينة « يحتمل انه حصن ابو ماهر . كذلك استسلمت بالتالي قلعة عراد التي كان يحتلها ابناءؤه . وظل ابناء الشيخ عبدالله - الذين أسروا في قلعة عراد - وبموافقة الشيخ المنتصر - يقيمون في البحرين ، اما الشيخ نفسه فقد سمح له المنتصرون بسفينة كبيرة واخرى صغيرة فقطكى ينتقل بهما مع عائلته واقاربه وممتلكاته جميعا الى الدمام وكان هذا المكان - هو الوحيد الذي بقي له وكان يحكمه في ذلك الوقت مبارك ابن الشيخ عبدالله .

وسيتضح للقارئ في المرحلة الثانية من حياة الشيخ محمد المواجهات التي جابهها من ابناء الشيخ عبدالله في الدمام ومن القبائل الموالية لهم في قطر .

اما الرواة المحليون لاحداث البحرين فانهم الى حد كبير يتفقون مع ما رواه النبهاني في كتابه عن الاحداث اذ انه استشهد تفصيلا بالمواقع الموجودة في البحرين وما دار حولها من معارك ، على خلاف ما سبق ان بينه لوريما مختصرا من الاحداث ليصل الى النتائج ، لذلك أفضل ان اصف الاحداث بالتفصيل الذي رواه القدماء او الرواة المسنون كما وصلتهم التفاصيل من اباؤهم .

وهي كمايلي تباعا

- موقعة الناصفة

- موقعة سوق الخميس

- موقعة الحنينية

- موقعة المحرق او موقعة الساية

موقعة الناصفة

سجل محمد بن خليفة اول انتصاراته بعد ان عزل جيش عم ابيه المتجه الى الرفاع والمكون من بنى هاجر لكى ينضم تحت قيادة الشيخين محمد وحمود ابني سلمان بن احمد اى ابني اخ الحاكم وعمى محمد بن خليفة .
فالتقى محمد بهذا الجيش في منتصف الطريق عند سند « الناصفة » ودارت الدائرة على الجيش الاول للشيخ عبدالله الذى انسحب الى الحورة . ليواصل القتال فيما بعد بقيادة الشيخ عبدالله نفسه بعد الانضمام الى جيشه الثانى تحت قيادته ويحقق هذه المرة انتصاراته على محمد بن خليفة في موقعة سوق الخميس .
تقول هذه التفاصيل في عرض النبهانى للاحداث .. وعلى اثر ذلك جهز الشيخ عبدالله جيشين احدهما ارسله الى ابني اخيه محمد وحمود ابني سلمان في الرفاع وقد تألف الجيش المذكور من بنى هاجر لقتال محمد بن خليفة .

اما الجيش الثانى فقد قاده بنفسه متوجها به نحو سوق الخميس .
اما محمد بن خليفة فقد توجه مسرعا حينما سمع بالخبر وجرد جيشا ليصد جيش الشيخ عبدالله الاول عن الوصول الى الرفاع في منتصف الطريق اى في سند ، حيث نجحت محاولته هذه وانسحب الجيش الاول الى الحورة في المنامة ثم تابع مسيرته حيث انضم الى الجيش الثانى في الخميس الذى يقوده الحاكم بنفسه ، الا ان الحظ لم يوافق الشيخ محمد في محاولته الثانية بالرغم من ثباته وشجاعته ، فكانت المعركة لصالح الحاكم ، حيث قتل اخوه دعيج بن خليفة وقتل للشيخ عبدالله احد احفاده في « سوق الخميس » عام « ١٢٥٨ هـ » .

موقعة الحنينية

حاول محمد بن خليفة التوجه الى نجد ، بعد ان وجه اخاه الشيخ على بن خليفة للعمل على حشد جيشه سرا في انتظار تعليمات من قبل اخيه بعد ان تتم مقابلته مع امير الرياض عبدالله بن ثنيان الا ان هذا الاخير لم يقدم المساعدة للشيخ محمد مما اضطره للعودة الى قطر ، واستنجد بقبيلة البنعلى القاطنة « جزيرة قيس » فهبوا لنجده برئاسة عيسى بن طريف وانضمت لها قبائل أخرى كقبيلة النعيم تحت قيادة جبر بن ناصر ، وآل بوكواره برئاسة محمد بن سعد وقبيلة الجلاهمة ورئيسها بشر بن رحمة بن جابر .

تقدمت قبيلة النعيم اولا الى البحرين لتتضم الى جيش الشيخ على بن خليفة الذى توجه بها الى منطقة « الحنينية في الرفاع » ليلتقى هناك بجيش عمه الشيخ عبدالله حيث انتصر بعد قتال شديد واحتل الرفاع في نفس الوقت هب الشيخ محمد بن خليفة مع القبائل المساندة له والقادمة من قطر محاولا الزحف بها لاحتلال المنامة ، بينما بقى الشيخ عبدالله محتفظا فقط بقوته في المحرق وقد نزل الشيخ

محمد بجيوشه في المحرق عند الساية « يتبوع ماء » ولم يستطع عمه مبارزته وانما تحصن مع بعض رجاله في « قلعة ابي ماهر » جنوب المحرق وتركهم الشيخ محمد لاجئين في القلعة وبعدها ارادوا الذهاب الى بلدة الدمام ، ثم ساروا الى فارس وبعدها توجه الشيخ عبد الله الى الكويت مستنجدا بحكامها . « آل صباح » ثم الى نجد للغرض ذاته وبعدها الى مسقط للاستنجاد بسلطانها السيد سعيد الا انه توفي هناك بعد ان حكم لمدة اثنتين وعشرين عاما ليستتب الامر للشيخ محمد بن خليفة . ومن الجدير بالذكر ان الشيخ محمد اشتهر بالعديد من الصفات التي ميزته من الناحية الشخصية وازافت اليه ابعادا « وتبصرا » من الناحية السياسية وقدرة وجرة في النواحي العسكرية *

واذا كانت هذه الاحداث التي ادت الى استيلاء الشيخ محمد على السلطة في البحرين تعتبر الفصل الاول او المرحلة الاولى من حياته ، فان المرحلة الثانية / تبدأ منذ توليه السلطة وما تبعها من مشكلات وظروف محلية واقليمية جعلته يواجهها بصلاية وجرة نادرتين .

المرحلة الثانية من حياة الشيخ محمد بن خليفة

تبدأ المرحلة الثانية من حياة الشيخ محمد بن خليفة مرتكزة على ركيزتين اساسيتين وفي نفس الوقت مكملتين لبعضهما البعض ، حيث ان الشيخ حاول ان يركز حكمه في الداخل متخذاً مختلف السبل والوسائل المؤدية الى المحافظة على حكمه من الدسائس والمجابهات الخارجية .

فعلى المستوى العائلي ، حاول عم ابيه الشيخ عبد الله بن احمد ان يستعيد حكم البحرين من مقره في فارس مما اتاح الفرصة للتدخل البريطاني في شئون البحرين ، كما اثار فترة جدل عنيف مع الحكومة الفارسية وتطلعاتها في البحرين .

التطلع الفارسي في البحرين :

يبدو ان فارس استغلت الخلافات العائلية على الحكم في البحرين والوساطات التي كان يقوم بها المقيم السياسي في بوشهر ، بين الفئات المتنازعة بطرق متفاوتة

* لقد كان شجاعا شديدا الباس ، جمع بين الحلم والوقار والمهابة والبشاشة وكان له من صدق الفراسة والاصابة والذكاء ، لاسيما في تفسير رؤياه المنامية ما يكاد يجعله ملهما .
انظر النبهاني « تاريخ البحرين » ص ٦٣ ، كما يروى النبهاني في نفس المكان ان للشيخ محمد ١٣ ابنا هم خليفة واحمد وعلي وجابر وسلمان وناصر وعبد الله وعبد الرحمن والشيخ راشد وصقر وعبد العزيز والشيخ ابراهيم والشيخ فارس .

بين اللين والقسوة فقد أبدى المقيم السياسى نصيحته للشيخ محمد بمنعه من القيام بأى عمل رادع ضد منافسيه في الخارج ، لئلا يترك الباب مفتوحا « للتدخل الفارسى » في شئون الجزيرة الا ان فارس لم تترك الامور تمضى دون ان تبدى احتجاجها الى وزير الخارجية البريطانى على تصرفات المقيم السياسى .

غير ان بريطانيا لم يثرها الامر ولم ترسل ردحا الى رئيس وزراء فارس الا بعد مضى ثلاث سنوات تحاشيا للمواجهات الساخنة ويبدو ان الاخير اصابته الدهشة من الموقف البريطانى وحاول ان يؤيد ادعاءات فارس في البحرين بمختلف الاساليب وقد احتج وزير خارجية بريطانيا على موقف فارس وادعاءاتها في البحرين و التدخل بين الاسرة ، لايجاد موقع قدم بمناصرة هذا اوداك ، خصوصا حينما اتصل قنصل فارس في بغداد بالشيخ عبدالله وقدم له استعداد بلاده لمساعدته عسكريا ضد الشيخ محمد وبريطانيا الا ان الشيخ عبدالله توفى عام ١٨٤٨ وقيل ١٨٤٩ م في ميناء مسقط .

التأثيرات العثمانية على الاوضاع في البحرين

لم تكن فارس هى الدولة الوحيدة التى أرادت ان تتدخل بين الحاكم الشيخ محمد وعم أبيه الشيخ عبدالله بن احمد فقد حاول الاخير الالتجاء الى قبائل عربية في جزيرة قيس في الخليج مطالبا اياهم بمد يد المساعدة لنصرته وحينما تأكد الشيخ محمد من خطورة الموقف اتصل بالدولة العثمانية كما تشير بعض المصادر ورحب الباب العالى بمساعدته وارسل سفن للخليج مقابل اعتراف من الشيخ بسيادة السلطان ولم يوافق الشيخ على بسط السيادة كما ارادتها الدولة العثمانية وتحاشيا للمواقف المتأزمة التى قد تنشأ في تلك الظروف فقد استخدم قدراته الدبلوماسية في لعبة التوازن بين الدولتين الاقليميتين آنذاك فلجأ لرفع العلم العثمانى لدى وصول وكيل الدولة العثمانية والعلم الفارسى لدى وصول وكيل فارس مما دعا بريطانيا الى الاعتراض على الدولة العثمانية وفارس لما سبق ان وقعت من معاهدة صداقة مع الشيخ محمد وادى ذلك الى اختفاء كل من هذين الوكيلين خارج البحرين . كما استمر اولاد الشيخ عبدالله بن أحمد الذين لجأوا الى الاحساء في انتهاج نفس الطريق الشائك الذى سار عليه والدهم في متابعة الشيخ محمد ومحاولته الاستيلاء على البحرين ففى عام ١٨٥٢ حاول محمد بن عبدالله احتلال البحرين ، الا انه لم يوفق في ذلك

تمة المرحلة الثانية

استمالت فارس الشيخ محمد بن خليفة بعد وفاة عم أبيه وأظهرت له حسن النية وطلبت منه أن يعطيها مكانة خاصة وقد ارسلت له مندوبا ومعه بعض الهدايا المميزة.

وقد اتخذت بريطانيا من هذا الموقف ذريعة لتدخلها في شئون البحرين رغم علمها بأن هذه الأمور لا تبدل شيئا من واقع البحرين بقدر ما تعطى فارس والشاه بعض الفرص للتعبير عن الهيبة الامبراطورية. ومع ذلك فقد تدخلت بريطانيا في الأمر بعنف معتبرة ذلك تحديا من الشيخ لنصائح المقيم السياسي.

وازاء الخطوات الحربية التي قام بها المقيم السياسي البريطاني جونس من بوشهر وذلك بمحاصرة المنامة اضطر الشيخ لتوقيع معاهدة ١٨٦١ التي تعلن انضمام البحرين الى معاهدة السلام العامة التي وقعتها دول الساحل فيما سبق والتي تشير في مقدمتها الى انه : نظرا للاضطرابات التي احدثتها القبائل العربية فأننى انا محمد بن خليفة اعلن انضمامى الى معاهدة الصداقة والسلم الدائم التي تهدف الى تقدم التجارة وسلامة جميع الشعوب التي تستعمل هذا البحر للملاحتها وتتكون هذه المعاهدة من خمس مواد وقعت في ٣١ مايو ١٨٦١.

تجدد المنازعات بين الشيخ محمد وابناء عمه :

استنجد آل عبد الله في القطيف بآل البنعلي وزعيمهم عيسى بن طريف لمساعدتهم في دخول البحرين، وجاءوا جميعا الى قطر لشن الحرب على الشيخ محمد بن خليفة الا انه ارسل لهم أخاه الشيخ علي بن خليفة على رأس جيش حاربهم في واقعة «أم سوية» وقتل في تلك الواقعة عيسى بن طريف واحد ابناء الشيخ عبد الله فاتجه الباقون الى القطيف ثم لجأوا ثانية الى أمير نجد فيصل بن تركي الذي امدهم بجيش جرار، وعندما ابحر هؤلاء وانصارهم كان جيش الشيخ محمد مستعدا برا وبحرا لمقاومة أي تدخل في شئون البحرين، مما اتاح له الغلبة في موقعة بحرية قتل فيها الشيخ مبارك بن الشيخ عبد الله، وحاول هؤلاء مرة ثالثة الا ان الشيخ علي بن خليفة حاصرهم أحد عشر شهرا مما اضعف قوتهم وطلبوا وساطة فيصل بن تركي لدى ابن عمهم حاكم البحرين محمد بن خليفة الذي عفا عنهم واجاب طلبهم في العودة الى البحرين.

المواجهات بين الشيخ محمد بن خليفة والقبائل في قطر :

حدثت مواجهات بين الشيخ محمد بن خليفة والقبائل في قطر التي كانت انذاك تابعة للبحرين فقامت بعض القبائل بترأسها قاسم بن ثاني لمقاومة نفوذ الشيخ محمد في قطر، فارسل حاكم البحرين أخاه الشيخ علي على رأس جيش لوضع الأمور في نصابها. وقد وصل الى قطر سرا حيث تم تدمير قطر تدميرا شاملا، مما دعا قاسم بن ثاني على اثر تلك الاحداث الى التقدم طالبا العفو من الشيخ محمد في البحرين حيث اودع السجن، وعاد الشيخ محمد ليشترك مع القبائل ثانية ولكن عندما وصلت الانباء الى شبه جزيرة قطر، بسجن قاسم بن ثاني، فرت هذه القبائل الى البحرين تتقدمهم قبيلة النعيم، وقد استعد الشيخ محمد واخوه الشيخ علي

لجميع تلك الاحتمالات فاشتبك الفريقان في مكان اسمه دامسة في معركة ضارية عام ١٨٦٧ اسفرت عن خسائر فادحة في القتلى من الجانبين وكان من نتائجها فوز البحرين في المعركة وتشير بعض المصادر الى ان حرب «دامسة» شكلت احد المبررات الرئيسية للتدخل البريطاني المباشر في شئون البحرين.

التدخل البريطاني المباشر في الخلاف

مع ان المصادر والرواة يؤكدون دائما على ما تميز به الشيخ محمد من تفوق في بدايته الى درجة تصبح البداة فيها ضربا من الرؤية الا انه حاول بهذه النظرة الابتعاد عما يبيده المقيم البريطاني من تقرب في صداقته فقد تقدم المقيم من بوشهر يطلب صداقة الشيخ محمد ويعرض عليه المعاهدة التي أسماها معاهدة صداقة والتي سبق تفصيلها في سياق البحث وتضمن للشيخ حدوده وممتلكاته من الاخطار المحيطة به، وتريث الشيخ محمد في قبول هذا العرض وذلك لما ينطوى عليه من امتيازات لصالح الوجود البريطاني ورعاياه، اضافة الى ان معظم بنود تلك الاتفاقية تقيد من تحركات الشيخ محمد وما اتصف به من مواقف حربية تميزت بالنجاح في مجملها، الا ان الشيخ حاول ان يستفيد من الاتفاقية في مواجهة اعدائه وفي نفس الوقت احتفظ بحريته في التحرك ومجابهة مختلف الظروف ومعالجتها بالشكل الذي يراه، وهذا ما جعل المقيم السياسي يحتد في تصرفه تجاه موقف الشيخ من القبائل في قطر ومحاولة صدهم في معركة «دامسة» بعد ست سنوات فقط من اتفاقية الصداقة مع بريطانيا وكانت وجهة نظر الجماعة التي كانت تمثل السلطة في البحرين آنذاك، أن القبائل في قطر هاجمت البحرين بغته بحيث لم يكن هناك متسع من الوقت لاختار رأى المقيم السياسي في بوشهر وكان رد الشيخ محمد بايقافهم نابعا من محافظته على الأمن والحكم في البحرين الا أن المقيم السياسي رغم ذلك اعتبر هذا العمل خرقا للاتفاقية وجاء على بارجته لمقابلة الحاكم الا ان الشيخ محمد توجه في نفس الوقت الى قطر للتفاوض في ايقاف القتال وفوض اخاه الشيخ علي متابعة الموضوع المطروح للمناقشة مع المقيم.. غير ان المقيم لم يأت مسالما للتفاوض وانما واصل أسلوبه باتباع السبل العنيفة حيث حاصر قلعة ابي ماهر، واطلقت بارجته مدافعها على القلعة التي كانت ترفع العلم العثماني والعلم الفارسي كما احرق اسطول البحرين الشراعي في غياب الشيخ محمد، ثم طلب المقيم من الشيخ علي بن خليفة ان يتقلد الحكم محل أخيه واضطر الشيخ علي في هذا الجو الساخن ان يهادن المقيم ويوقع مع وجهاء البلاد اتفاقية ٦ سبتمبر ١٨٦٨ والتي تعتبر بمثابة، السند الرئيسي في اعطاء بريطانيا سلطات اوسع في الشؤون الداخلية ونظام الحكم والادارة مما يتناهي مع ما سبق ان وقعته من اتفاقية صداقة لها جوانبها السلبية والايجابية في نفس الوقت. غير ان الاتفاقية الجديدة كانت تنطوي على غرامات تدفعها البحرين للمقيم اضافة الى ما انطوت عليه المادة

الخامسة التى تقضى بتعيين وكيل دائم لحاكم البحرين في بوشهر لكى يكون على صلة وثيقة بتعليمات المقيم.

لقد تدخلت بريطانيا بين الاخوين في نص الاتفاقية وبذرت الشقاق بينهما بالرغم من ان الشيخ محمد حكم طيلة ستة وعشرين عاما، كان فيها أخوه الشيخ علي بن خليفة العضد والساعد الايمن له في حروبه ومفاوضاتها وانتصاراتها اضافة الى ادارة شئون البلاد، واليه يعود الفضل في استمرار الحكم بينهما طيلة تلك الفترة، وعلى اثر ذلك لجأ الشيخ محمد الى الكويت يطلب وساطة أميرها في العودة الى حكم البحرين ومن هنا تبدأ المرحلة الثالثة من حياته.

المرحلة الثالثة من حياة الشيخ محمد بن خليفة

إذا كانت المرحلة الاولى من حياة محمد بن خليفة تمثل التحديات الكبيرة التى واجهته في الوصول الى دفة الحكم وإذا كانت المرحلة الثانية تمثل محاولاته العديدة في الاحتفاظ بالحكم والادارة والدفاع عن هذا المبدأ بالوسائل الحربية والسلمية والمفاوضات والتعاون والاتفاقيات سلبي أو ايجابيا الا أن المرحلة الثالثة تمثل مرحلة حرجة من حياته وهى مرحلة ابتعاده عن الحكم الذي طالما دافع عنه وبذل من اجله كل ما يملك من نفوذ ومال ورجال لذلك يواصل محمد بن خليفة في تلك المرحلة محاولات العودة الى البحرين بمختلف السبل التى بدا معظمها شبه مسدود تجاه محاولاته المتكررة لاسترجاع الحكم.. ففي الكويت المحط الاول للشيخ محمد طلب من حاكمها الشيخ مبارك ان يبدى وساطته لدى اخيه الشيخ علي للقدوم الى البحرين واستلام الحكم، وتشير المصادر بأن الشيخ الحاكم وافق على هذا الأمر بناء على طلب أخيه، وحينما استعد محمد للسفر الى البحرين، حاول البريطانيون بكل الوسائل التأثير على الشيخ علي للعدول عن تنفيذ طلب أخيه، مما اضطره الى العدول فعلا فغضب محمد بن خليفة، ولجأ الى دارين ومن هناك بدأ يجمع قواته من قبيلة بنى هاجر من الاحساء وابناء الشيخ عبدالله الذين نازعوه الحكم في السابق من الدمام، وفي اغسطس ١٨٦٩م عبر محمد بن خليفة وناصر بن مبارك الى البحرين في تسعة قوارب تحمل ٥٠٠ مسلح من بنى هاجر، وسارت تلك القوات الى الرفاع الشرقي الذي كان يسيطر عليه محمد بن عبدالله وهو الشيخ الذي كانت السلطات البريطانية قد طلبت باسم الشيخ علي بن خليفة إعادته من الدمام، ١٨٦١، وحدثت معركة انتهت بسبب مواقف محمد بن عبدالله ومناصرة بقتل الشيخ علي بن خليفة واحد ابنائه، واحتل هؤلاء اي محمد بن عبدالله والذي كان اشداهم سطوة ونفوذا مدن المنامة والمحرق.

الموقف البريطاني تجاه احداث البحرين

حينما وصلت أنباء الخلافات العائلية على الحكم في البحرين وما أدت اليه بسبب التدخل البريطاني في شئون الحكم. وصل الرائد بيلي من بوشهر على ظهر السفينة البريطانية دافني ومعه الكابتن دوجلاس يقود السفينة نيف، والقاربين المسلحين «كلايد وهيروز»، كما يذكر ذلك لوريمار مسجل احداث المنطقة في ذلك العصر. وبدأت العمليات العسكرية في ١٩ نوفمبر وانتهت في ٢ ديسمبر ١٨٦٩ حيث هوجمت قلعة ابي ماهر بالقوارب وهزمت حاميتها، وكان الشيخ محمد بن خليفة في خضم هذه الاحداث قد اتفق مع أبناء عمه عبدالله الذين خرجوا عليه في السابق بعد ان شاطروهم السلطة، الا انهم خرجوا عليه وسجنوه في قلعة ابي ماهر، لذلك قدمت السلطات البريطانية الى البحرين لابعاد محمد بن عبدالله الذي استلم مقاليد الحكم بعد قتل الشيخ علي ومحمد بن خليفة الحاكم الذي اختلف مع السلطات البريطانية والذي نحن بصدد الحديث عنه. وقد نقل الشيخ محمد بن خليفة مع ابني عمومته محمد بن عبدالله وعلي بن ناصر بن مبارك آل عبدالله والذي أسر في قلعته بالمنامة، والتي من المحتمل، ان تكون قلعة البحرين بعد تدميرها غير ان علي بن ناصر بن مبارك ذهب الى الاحساء، وبقي محمد بن عبدالله ومحمد بن خليفة في يد السلطات البريطانية التي نفتهما الى الهند حيث أودعا قلعة شونارد ثم الى عدن، وبوساطة كبيرة من السلطان العثماني، نقل محمد بن خليفة الى مكة، وقد تم ذلك بعد مصادرة املاكهما في البحرين، وتروى الحكايات المحلية الدور الكبير الذي قامت به زوجة الشيخ محمد بن خليفة واتصالاتها المباشرة مع السلطان في اسطنبول، من اجل زوجها واعادته الى مكة ليستطيع استقبال ابنائه واحفاده هناك وظل في المنفى واحدا وعشرين عاما. أما فيما يتعلق بالحكم في البحرين، فقد رأت السلطات البريطانية بعد عام ١٨٦٩ وبعد خلو السلطة بمقتل علي بن خليفة وتولى محمد بن عبدالله زمام الامور بعد مواجهته مع الشيخ محمد بن خليفة وقتل الشيخ علي بن خليفة انه من الافضل ان يستطلع رأى العائلة والاعيان والوجهاء في البحرين وبعد عدة مداورات اتفقت الاراء على استقدام الشيخ عيسى بن علي بن خليفة من قطر الى البحرين ليحكمها وهو أنذاك في الواحدة والعشرين من عمره، واستمر حكمه طيلة ما يقارب النصف قرن، اهتم خلاله بوضع بداية الاسس لتنظيم الحكم والادارة واشتهر بمجالسه المفتوحة للرواد والزوار والادباء.

وقد استفاد الشيخ عيسى بن علي من المحن والدروس التي قاسى منها والده وعمه، فاتفق على تنصيب ابنه الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة وليا لعهدده في الثلاثينات من هذا القرن.

خلاصة الملامح العامة لشخصية الشيخ محمد

لقد دار الحديث حول الشيخ محمد بن خليفة من خلال المراحل الرئيسية التي مرت بها حياته، ففي جميع الظروف التي صاحبت سيرته، يتلمس الباحث بعض الصفات التي لازمتها في مرحلة تلو أخرى، وانعكست بطبيعتها على الظروف التي فرضها الواقع المحلي والاقليمي والدولي في ذلك الوقت لقد حاول دائما الاعتماد على القوة العسكرية حينما تتوفر امكانياتها لتحقيق مطلبه، أما اذا كانت القوة التي يتعامل معها تفوق قدراته العسكرية فانه في هذه الحالة يعتمد على الدهاء والدبلوماسية وبالرغم من اصالة هذه الصفات الى جانب صفات شخصية اخرى اشترت اليها في مكان آخر. فان تلك الظروف التي واجهت الشيخ محمد لم تكن بالمرونة والسهولة التي تتيح للشيخ ان يغامر بالصدقات والتعاون من جهة، والاستقلال وفرض وجوده وصلابة موافقه مع الآخرين من جهة اخرى.

فالواقع الدولي في المنطقة والحقبة البريطانية التي اشتدت في مواقفها واتفاقياتها في عهد الشيخ محمد، كانت بحد ذاتها عاملا للتدخل بين الأسرة والقبائل العربية حول الخليج، لفرض سياستها التي أسمتها في فترة لاحقة سياسة الوضع القائم او الراهن، واعطت لنفسها حق التدخل ضمن هذا المبدأ، لاستمرار الوجود البريطاني تجاريا وعسكريا في المنطقة وعبر المحيط الهندي.

المراجع

أولا : المؤلفات العربية :

- ١ - أبو حاكم، أحمد مصطفى، تاريخ شرق الجزيرة العربية في العصر الحديث، (مطبعة النهضة) القاهرة، ١٩٦٨.
- ٢ - الداود، الدكتور محمود علي، الخليج العربي والعلاقات الدولية، معهد الدراسات العربية والبحوث، القاهرة ١٩٦١.
- ٣ - صبحي محمود، البحرين ودعوى إيران، (مطبعة عوف) اسكندرية، ١٩٦٢.
- ٤ - عباس اقبال، مطالعات در باب بحرین وسواحل خلیج فارس، القاهرة ١٩٥٦.
- ٥ - العقاد، الدكتور صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، (مكتبة الانجلو) القاهرة، ١٩٦٥.
- ٦ - قاسم، الدكتور جمال، الخليج العربي (مطبعة جامعة عين شمس) القاهرة ١٩٦٧.
- ٧ - النبهاني، محمد خليفة بن موسى، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، الجزء السادس، خاص بالبحرين (المطبعة المحمودية) القاهرة ١٩٣٤.

ثانيا : المصادر البريطانية القديمة :

- 1— Aitchison, C.U. A collection of Treaties Engagement and Sanads, Relating to India and Neighbouring Countries, VOL XI (Calcutta, 1933).

- 2— Feiix Jines, Lieutenant.
Selection from the Record of Bombay Government (Education Society Press).
- 3— Lornher J.G.
Gazetter of the Persian Gulf, Official Publication of the Government of India, Calcutta, VOL III, Historical, 1915.

ثالثا : المؤلفات الأجنبية :

- 1— Adamyat, Erydom, (P.H.D)
Bahrain Islands — Legal and Diplomatic (Study of the British Iranian Controvers — (Frederick A Praeger). New York, 1955.
- 2— Ballard, Sir Reader,
Britain and the Middle East from the earliest times to.
- 3— Faroughy, Abbas (P.H.D)
The Bahrain Islands, (1950 — 1951) A contribution to the study of power politics in the Persian Gulf (Very and Fisher) N.Y 1951.